الدوحة

ملتقى الإبداع العربي والثقافة الإنسانية

العدد 170 - ديسمبر 2021

www.dohamagazine.qa

الدوحة 2021
عاصمة الثقافة الإسلامية
Doha Capital of Islamic Culture

محمد إبراهيم الشوش
في ظِلّ الذّاكرة

محمد مبوغار سار
غونكور مُفاجِئة

كيليطو حكّايّ!

من الميتافيزيقا إلى الميتاديجيتال
حرب الخوارزميّات بَعد سَكتَة الفيسبوك

زمن البيو
حماية للصّحة أم انتهازية تجارية؟

170 الدوحة AL-DOHA MAGAZINE

السنة 14 - العدد 170 - ربيع الآخر 1443 - ديسمبر 2021

Year 14 - No. 170 - Rabia II 1443 - December 2021

في محبة الكدْح

اعتدتُ أن أحكي قصص الكدْح لبناتي الصغيرات، وبعض أصدقائي المُقرَّبين، ممَّن لم يشاركوني سنوات الطفولة والصبا. حكاية حياة عادية، لطفلٍ صغير، اعتاد، مثل أبناء بلدته، أن يعمل صيفاً وشتاءً، طوالَ أيام الإجازات والعطل، وفي بعض عصاري أيام الدراسة، ومساءاتها.

تبدأ حكاياتي مع الكدْح في سنِّ السابعة بالعمل في جمع دودة القطن، والمُساعدة في فلاحة قطعة أرض امتلكتها أسرتي. حين اشتدَّ العود قليلاً، اشتغلتُ في جمع القطن في موسم جمعه القصير. لكن رحلة العمل الشاق بدأت في الثانية عشرة من عمري حين اشتغلتُ عتَّالاً في المُؤسَّسة التموينية للسلع الغذائية بمدينة «إطسا». لمدّة ست سنوات، كنتُ أحملُ كلّ يوم على ظهري وكتفي عشرات الأطنان من المواد الغذائية والمنزلية التي توزِّعها المُؤسَّسة على جميع قرى المركز ومدنه. أُفرِغ مع زملاء العمل عربات النقل الضخمة في المخازن، ونعيد شحنها فوق عربات الكارو وسيارات النقل الصغيرة التي تحملها إلى القرى والنجوع. وفي بعض الأحيان، أرافق سيارة نقل صغيرة لأقوم بتفريغ حمولاتها في نهاية اليوم.

كان العمل يستمر من الصباح حتى العصر في العطلة الصيفية، ويمتد من الصباح إلى المغرب في الأيام الأولى من كلّ شهر. في أيام الدراسة شتاءً، كنت أسارع إلى البيت، لأخلع عني ملابس المدرسة، وأرتدي جلبابي، وأعمل في المُؤسَّسة حتى مغرب الشمس. ولم أتوقَّف عن العمل في المُؤسَّسة إلّا بعد التحاقي بالجامعة، واضطراري إلى السفر يومياً للدراسة في المُحافظة.

خلال سنوات ما قَبل الجامعة، اشتغلتُ أعمالاً أخرى متقطِّعة في أيام العطل الحكومية التي كانت المُؤسَّسة تُغلق فيها أبوابها. عملتُ في تجارة الخضراوات والفاكهة وجمعها من الأراضي الزراعية، وتحميلها على عربات النقل، كما اشتغلت في تزييت أبواب المحلّات الصاج، وتفريغ عربات مستلزمات البناء من طوب ورمل وزلط، ونقلها إلى الأدوار العليا، والتصييف؛ أي جمع بقايا محاصيل الحصاد من الأراضي مثل الفول والقطن، وغيرها من الأعمال التي كان يشتغل بها معظم أصدقائي وجيراني في ثمانينيات القرن العشرين.

لم أكن أختلف عن قرنائي في العمل المُتواصل صيفاً وشتاءً، فهذا طبيعي تماماً حيثُ نشأتُ. فقد كان الأصل في بلدتي، وفي معظم بلدان الريف المصري، أن يعمل الأولاد منذ صباهم الغض، ولا علاقة للأمر بالغِنى أو الفقر، فالكلّ يشتغل إمّا في عمل يملكه أهله أو يملكه آخرون.

ذكريات العمل الشاق محفورة في ذاكرتي، تفاصيل بعض أيامها طازجة، كأنها ابنة الأمس، رغم مرور عشرات الأعوام. معظم ذكريات العمل تتلازم عندي بمشاعر الفرحة والسعادة والرضا والتحقّق. فقد كانت صحبة العمل طيبة في معظم الأحيان، وما زلتُ أبتسم كلّما تذكّرتُ فرحة أخذ الأجر عن عملٍ مضنٍ، وذكريات السعادة بشراء ملابس المدرسة وأدواتها، ودفعِ مصاريفها من عرقِ الصيف وكدحه. وأكاد الآن أشعر بطعم السكر في فمي حين أتذكّر قطع الملبن والعسلية التي كنتُ أكافئ نفسي بها نهاية بعض الأيام، حين أكسب جيّداً. كما يخالجني دوماً شعورٌ بالاعتزاز كلّما تذكّرتُ الإحساس المُبكِّر بالمسؤولية والسعي منذ طفولتي المبكرة إلى الاعتماد التام على النفس في العمل والحياة.

لكن القليل جدّاً من ذكريات الكدْح في الطفولة يمتزج فيها الاعتزاز بالألم، فلا أظنني أنسى أبداً أوّل مرّة أحمل فيها على ظهري 7 أجولة من السكر البني، وزن كلّ واحد منها 100 كيلو، وأسير بكلٍّ منها نحو 80 متراً، عابراً بها قنطرة مصنوعة من نصفي جذع نخلة مربوطين بالحبال، حتى أنقلها من العربة إلى دكان التاجر في الضفة الأخرى من ترعة صغيرة. فما زالت ترن في أذني عبارة صاحب سيارة النقل التي كنتُ أعمل عليها حين أخبرته أن الأرض زلقة؛ بسبب عادة رش الماء أمام البيوت في العصاري، وأنني أخشى أن تنزلق قدميَّ أثناء السير:

- «اجمد، احنا مش جايين الحضانة!».

هكذا قال بنبرة تشجيع ساخر. وكان عليَّ -أنا ابن الأربع عشرة سنة- أن أبرهن على أنني «مش جاي الحضانة»، وأن أكون على قدر العمل الذي جئت للقيام به، بأن أحمل على ظهري الأجولة السبعة، وأسير بكلٍّ واحد منها وسط الأرض الزلقة، وفوق قنطرة مهتزة.

مع كلّ خطوة، كنتُ أنقل قدمَيَّ بحذرٍ بالغ، وأنشب أظافرها في الأرض حتى لا تنزلق مع الطين، وأفكِّر في الخطوة التالية. كنتُ أدعو الله أن يحفظ ماء وجهي أمام صاحب السيارة، وأمام التاجر الذي كان يتلقاني في دكانه بخوفٍ أبوي أصيل قائلاً: «الله يقويك يا ابني». سبعة أشواط استغرقتْ نحو نصف ساعة كأنها في ذاكرتي نصف دهر، ما تزال ثوانيها محفورة في الروح، بمزيج من الاعتزاز والألم.

أظنني، كذلك، لن أنسى ذكرى مساء شتوي قارس، قمتُ فيه مع زميلَين آخرين بتفريغ 40 طن سمن صناعي من سيارة نقل

ذات مقطورتين. وصلتْ السيارة متأخِّرة، فلم يتبقَ من العتالين إلّا ثلاثتنا، وكانت صفائح السمن ذات العشرين كيلو حادة الأطراف، تنغرس في الكتف، وتحتاج إلى حذرٍ شديد أثناء حملها، فقد كان سمنها سائلاً في معظم الأحيان، قد تتسرَّب قطرات منه إلى جسمها الصاج، فتجعلها زلقة كقطعة صابون مبتلة. كان كلُّ واحد منّا يمسك بقطعة قماش يسند بها أعلى الصفيحة، ويضع قطعة أخرى على كتفه حتى تقلّل من احتكاك سيف الصفيحة الحاد بالجسم، ونرتدي ملابسنا التحتية فقط، حتى نحافظ على جلابيبنا من وسخ السمن الذي يصعب تنظيفه.

بعد أقلّ من نصف ساعة من الشغل، كانت أجسادنا قد تشرَّبت السمن السائل من الصفائح، لا سيما المكسورة منها. وأصبح خطر الانزلاق على أرضية المخزن المُشبع بالزيت كبيراً. لكن كلّ هذا لم يشكِّل أي خطرٍ جديد علينا. فقد اعتدنا هذه المخاطر حين نتعامل مع حمولات الزيت والسمن. وفي الحقيقة كنتُ أكره العمل في مخزن السمن، وأفضِّل مخازن الشاي والصابون والكبريت ومسحوق الغسيل (رابسو). حتى العمل في مخزن السكر، بأجولته ذات المئة كيلو لم يكن يمثِّل مشكلة لديَّ، فيكفي أن أتأكَّد أن الجوال (الشوال كما كنّا نسمّيه) مستقر جيّداً أعلى الظهر، وأن أتحرَّك بحذر، خاصّة أثناء صعود المصاطب المُكوَّنة من أشولة أخرى حتى يصل ارتفاعها إلى سقف الحجرة. لكن صفائح السمن كانت مؤذية فعلاً، لأنّ قطرات السمن قد تنزل على العينين أثناء حمل الصفيحة، فتصبح الرؤية مغبَّشة، كما أن أرضية مخزن السمن زلقة بطبعها، واحتمالات الوقوع فيها وارد، وغير مأمون العاقبة؛ لأن الصفيحة قد تنسكب بأكملها على الأرض، فنتعرض جميعاً للوم أمين المخزن، وربّما خصم بعض الأجر أيضاً.

استمرَّ تفريغ السيارة (أو تعتيلها كما كنّا نقول حينها) حتى منتصف الليل، وأنهكني التعب تلك الليلة على نحوٍ غير عادي، لكن أكثر ما أتذكَّره من ذكريات هذه الليلة هو البرد الذي كان يخترق عظامي. كان السائق وأمين المخازن يجلسان أمام المخزن يوقدان ناراً ليستدفئا بها حتى ننتهي من التعتيل. توجَّهت إليهما حتى أحصل على بعض الدفء من النار المُشتعلة، أثناء التقاط الأنفاس في منتصف العمل، لكن عم محمد، أمين المخازن الذي كان يُعاملني كابن له، أبعدني عنها قائلاً: «السمن، يا عماد، زي البنزين، يشم النار، ويولع بها». في تلك الليلة قارصة البرودة، كان عليَّ كذلك أن أتحمَّل السير بملابس تحتية مشبعة بالسمن، وأنا عائد من المخزن إلى بيتي، أمسك جلبابي في يدي، لا أستطيع أن أرتديه لأستدفئ به حتى لا يفسَد، بينما البرد يكاد يخترق عظامي.

باستثناء ذكريات التعب الاستثنائي، وبعض المواقف الصعبة والمُؤلمة التي لا يخلو منها عمل، حفرتْ سنين المشقة والكدْح في ذاكرتي نبعَ فرح لا يجف، وذكريات اعتزاز لا تُمحى. وأعطتني دروساً لا تُنسى، ووجَّهت إلى حدٍّ كبير الكثير من اختياراتي الشخصية في الحياة. فالولع بالعمل، وإيثاره على كثير من المُتع غدا مكوّناً أصيلاً من شخصيتي. وأصبحَ تحمُّل المشاق، والمُثابرة، والإصرار، جزءاً من طريقة عيشي في الحياة. وكان استقلالي المادي والعاطفي منذ الطفولة حاسماً في ألّا أكون يوماً ما عالة على أحد.

من دروس الكدْح أنه يعلّمنا تقديس الأكل الحلال، فتصبح النزاهة والشرف أهمّ الصفات التي يمكن أن يتسم بها الإنسان. وبقدر ما يحببنا الكدْح في الرزق الحلال، يجعلنا نبغض كلّ الفاسدين واللصوص والمُحتالين والحلنجية والبلطجية وغيرهم من آكلي عرق الناس بالباطل؛ لأنهم يجسّدون نقيض أكل العيش الحلال بشرف ونزاهة.

يعلّمنا الكدْح أن نكتفي قدر الإمكان بما لدينا، وألّا ننتظر شيئاً من أحد. فتغدو القناعة بما لدينا قارب استقلال وحرّيّة. وما نكسبه طوال حياتنا بعرق الجبين يمنحنا دوماً حرّيّة التعبير عن أنفسنا بصدق، وبلا وجل، فلا ننافق أحداً طمعاً ولا خوفاً. كما يعلّمنا اعتياد الكدْح أن نرحِّب دوماً بإمكانية البدء من جديد، وألّا نخشى فَقْدَ أي شيء ما دمنا قادرين على العمل. وليس غريباً أن يكون الخوف من المرض المُقْعِد عن العمل هو أكثر ما خشيته طوال حياتي. وأن يكون دعائي الدائم هو نفسه الدعاء الذي كان يردّده أبي الطيب الحنون: «ربنا يتوفانا وتراب السكك على رجلينا»؛ أي اللهم اكتب لنا الموت ونحن لا نزال نكدح، ونعمل، ونسير في دروب الأرض، وفوق ترابها.

تعلِّمنا سنين الكدْح والمشقّة أن نثق في قدرتنا على السير في الطرق الوعرة، للوصول إلى حيث لم يذهب بعد الآخرون. فكلّ جهدٍ يُبذَل محدود مقارنةً بسنوات العرق المُتواصل. كما تعلِّمنا أن نمدَّ العون للسائرين في الطريق. فالقدرةُ على الكدْح نعمة حقة، وجزءٌ من شُكْرِها يكون بمُساعدة السائرين في نفس الطريق.

■ **عماد عبد اللطيف**